الكتابة والكتابة الإبداعية
إعدام الخيال في منهاج اللغة العربية للصف الثامن

قراءة في موضوعة التعبير وتجربة في الكتابة الإبداعية
(حرب ضد اليباب، حرب ضد السطح)

زياد خدّاش

أتذكر ذلك اليوم جيداً، كان صباحاً كئيباً في طقسه وفي تفاصيله الأخرى ابتداءً من تكرارية الأشياء والأصوات والحركات في المدرسة: «صياح المدير، الجنازات المعلقة في وجوه المعلمين، شغب الطلاب على الدرج، رنين الجرس، الصمت الذي يسيطر فجأة على الدرج وبين الصفوف»، مروراً بالوقت الذي يتباطأ في الصف كأنه مؤامرة أو كابوس، انتهاءً بلعنة لا سبيل لصدها اسمها لعنة الحصة السادسة. إنَّه اليوم الأول في العام الدراسي الجديد، جلست على الطاولة أمام طلاب الصف الثامن – طلاب أعرفهم جيداً. فقد درَّستهم اللغة العربية في الصف السابع. درَّستهم طرقاً أُخرى في الإحساس بالأشياء والتعبير عنها. ها هم يجلسون أمامي الآن بانتظار استكمال مشروع «الرؤية المجنونة للعالم». نحن بانتظار كتاب اللغة العربية للصف الثامن؛ وهو منهاج جديد وضعته نخبة من الأكاديميين والمعلمين اختارتها وزارة التربية والتعليم.

دخل سكرتير المدرسة يرافقه طالبان يحملان كتباً، وزع السكرتير كتاب اللغة العربية على الطلاب وألقى أمامي بنسختين. حدثت جلبة في الصف، فقد ابتهج الطلاب بكتابهم الجديد الذي يؤكد نضوجهم ودخولهم بنجاح مرحلة أخرى من مراحل حياتهم. تصفَّحت الكتاب بكسل، كان لدي يقين كامل بأن لا جديد هنا ولا تغيير. فالعقل الذي صاغ هذا المنهاج هو نفسه العقل الذي صاغ منهاج السابع والسادس، فليس من المعقول أن يتطور العقل فجأة ليصبح منهاجاً مختلفاً، يعتذر عن سطحيته السابقة، على حواف شفتي وقفت هذه الكلمات: يا أعزائي إنها حرب أخرى سنخوضها هذا العام ضد يباس الفكرة وتكلس الأحاسيس وزيف الصورة وتسطح الوعي. لم أنطق هذه الكلمات همستها لنفسي وأنا أنظر حزيناً لطلاب أبرياء جاهزين لتقبل أفكاري بحماس، لكنهم قد يتقبلون أفكاراً أخرى من مدرس آخر مؤمن بالمنهاج ومطيع.

إنهم يعيشون مرحلة قلقة جداً ورخوة، مهيأون فيها للتأثر بأية فكرة صادرة عن شخص يقف أمامهم معلماً عادياً جداً يشبهه آلاف المعلمين المنتشرين في القرى والمدن والمخيمات. شخص يلقي عليهم بمعلوماته طالباً منهم حفظها، شخص لا يجرؤ على الخروج عن المنهاج قيد أنملة، ليس فقط خوفاً من وصايا الأسياد في المكاتب الرطبة، ولكن إحساس منه بالضياع وفقدان البوصلة – المسطرة خارج هذا المنهاج الذي يشكل له الطريق والدليل والإدارة والسقف، وحتى الشرف الوطني، والعائلي، والديني. انتهت الحصة الأولى، انصرفت متأبطاً حربي إلى غرفة المعلمين، هناك كان الزملاء كسالى ومتشابهين

تماماً ومتأففين. كالعادة انزويت وحدي في أقصى الغرفة. ورحت أتصفح تفاصيل الحرب التي سأخوضها ضد العقل المتكرر، العقل الراضي عن نفسه، العقل المطمئن والهادئ والمنتصر، العقل الذي وصل إلى نهاية التفكير ونهاية الأشياء، العقل الذي لا عقل بعده.

كانت أصوات المعلمين حولي تتعالى، وكنت أبذل جهداً خارقاً لأنفيهم عن حيز أفكاري وهواجسي واحتراقاتي.

أحياناً كنت أنجح، وأحياناً كانت عزلتي (المختارة) عنهم تُهزم أمام صياحهم ونقاشاتهم المحتدمة حول موعد الراتب وموعد مجيء المفتشين – وموعد العطلة المقبلة.

وكنت أهرب إلى الملعب، أمشي هناك مستكملاً تجميع خيوط خططي لمواجهة وحش هائل الأنياب يتستر خلف أقنعة مخملية من الحب والأخلاق والترابط الأسري والقيم الدينية والمهارات اللغوية والمعلومات التاريخية والقصائد والقصص.

لم يكن حولي أحد تقريباً أناقشه في خططي أو حتى أكاشفه بأسرار حربي. بالعكس تماماً فالبيئة التي أعمل وسطها كانت دائماً تحاول إحباطي وكسر شوكة مشروعي التثويري – «التجريبي». المعلمون في عالم وأنا في عالم آخر.

التوغل في زرقة الأشياء

الوحيد الذي فهم رؤيتي واستوعب جنوني هو مدير مدرستي، والواقع أنني يجب أن أعترف أن وسط كل هذه الكآبات التي أعيشها في المدرسة بسبب طبيعة القوانين والأنظمة، وبسبب عماء وغباء الشروط والواجبات الجامدة وغير القابلة للتعديل أو المناقشة، كان الحظ يبتسم لي جزئياً هذه المرة؛ بسبب وجود مدير مدرسة صغير في السن نسبياً (28 سنة) ليبرالي، يحترم الفكرة الأخرى، يناقش بأدب في المسائل الخلافية، والأهم من ذلك جرأته في طرح ما يعتقده صحيحاً أمام المسؤولين الطحلبيين ذوي الطاعة العمياء للتقارير والكتب الرسمية والأوامر والأرقام والسجلات. والأهم من الأهم هو امتلاكه لحس فني رفيع يميز بين الجميل والقبيح في السلوك والحياة.

صباح اليوم التالي، أقف أمام طلابي قائلاً لهم: ها هو عام آخر يأتي. سنستكمل مشروعنا يا أصدقائي. سنمد في طول أجنحتنا وسنتوغل أكثر في زرقة الأشياء.

- هل أنتم مستعدون للطيران إلى أبعد مما فعلنا؟
- نعم، مستعدون. أجابوا بصوت واحد.
- حسناً، هذا كتاب الصف الثامن (رفعت الكتاب بيدي) منهاج جديد. وكلمة منهاج تعني الطريق أو الرؤية، ما يعني أنهم يعتقدون (مؤلفو الكتاب) أنهم يعطوننا طريقاً لنمشي عليها أو رؤية لنهتدي بها.

لا بأس، لندعهم هانئين في قاع يقينهم اليابس، ولنحترم وهمهم. ولكننا سنعتذر لهم في سرنا طبعاً (ضحك الطلاب يرتفع ويتخذ شكل نشوة): نحن شاكرون لكم جداً إعطاءنا المعلومات القيمة حول قواعد اللغة العربية، وقواعد الإملاء والخط، هذه مهارات نحن ملتزمون بها تماماً. ولكننا لن ننصاع لتوجيهاتكم بخصوص طرق التفكير، وآليات مناقشة الدروس، وفي مضامين التعبير الخاوية والمملة والقاتلة للمخيلة، والمعدمة للحياة الداخلية لصالح الحياة الخارجية الرتيبة. هنا صراعنا معهم. هنا ساحة المواجهة. لن نقول لهم ذلك بصوت عالٍ، سنهمس ذلك همساً حتى لا يسمعوا. ها هاهاهاهاهاها.

أصدقائي الأعزاء سأقرأ لكم الآن مقدمة هذا المنهاج وهي تحتوي على أهداف هذا الكتاب وعلى رؤيته أو خطابه العام.

1- الطالب محور العملية التعليمية، فلا بد من مراعاة نموه المعرفي واللغوي والاجتماعي والنفسي.

2- اختيار المادة التعليمية والنصوص الأدبية والشعرية والنثرية تم في إطار الأبعاد المعرفية والوجدانية والوطنية والعربية والإسلامية والإنسانية، مع المحافظة على خصوصية الواقع الفلسطيني.

3- مراعاة التنوع في الفنون الأدبية – الشعرية والنثرية الممثلة للعصور التاريخية المتعاقبة، مع التركيز على النص المعاصر، تعميماً للتواصل بين الطالب وحاضره.

وقد حرصنا في معالجة كل نص على توافر العناصر التالية:

1- جو النص، نبذة عن سيرة الشاعر، وإضاءة حول نصه.

2- المعجم والدلالة، يتناول تعدد دلالة الكلمة الواحدة في سياقات لغوية مختلفة.

3- الفهم والاستيعاب يقوم على أسئلة سهلة قريبة الإجابة تساعد على فهم النص.

4- التحليل يقوم على أسئلة تثير التفكير وتتناول بناء النص وتوضيح الصور الفنية.

5- التعبير أو التلخيص يقوم على مراعاة التدرج في تنمية مهارات التعبير بأنواعه، والترابط مع موضوعات الدرس.

6- (اقرأ واستمتع) يشمل مجموعة من النصوص الجميلة المشوقة التي تم اختيارها من أجل المتعة والفائدة.

إن الأسس العامة لمنهاج اللغة العربية الفلسطيني تستمد مبادئها من إرث المجتمع العربي الفلسطيني وقيمه الدينية والاجتماعية والثقافية ومن وثيقة إعلان دولة فلسطين العام 1988.

إلى هنا ما ورد في مقدمة منهاج الثامن للغة العربية

سأتحدث لكم الآن يا أصدقائي عن كلمة صغيرة مكونة من أربعة حروف: هي كلمة (خيال) (هنا رن الجرس معلناً انتهاء الحصة) «وكأن الجرس هنا يرمز إلى رفض هذه الكلمة ويعلن الخطر منها».

المدير يبلغني بفرح أنه تم اختياري أميناً لمكتبة المدرسة. بإمكاني الآن أن أفكر بهدوء بعيداً عن عادية الزملاء. بإمكاني أن أكون وحدي في قاعة مليئة بالموسيقى والكتب واللوحات وجبل مجاور طويل ومليء بالشجر والغزلان الشاردة. سأعتبر الآن أن الحظ ابتسم لي هذا العام مرتين: حين أرسل لي مديراً مختلفاً يتفهم جنوني (وعصياني) وحين أهداني قاعة واسعة أرسم فيها بهدوء خطوات المعارك وشكلها وحجمها. أُدير الحرب على خصمي في عقر داره وباستخدام أشيائه: كتب، وحاسوب، وقاعة، ومدفأة، وستائر، وسبورة، وطباشير، وكراسي.

(جنود لكسر العتمة)

حصة جديدة أمام طلاب الصف الثامن أ. هؤلاء هم لكسر العتمة وإضاءة الغرفة السحرية المراد إبقاؤها معتمة. غرفة معلقة بحزن وصمت في سقف روحنا. غرفة موجودة داخل كل إنسان في هذا الكون ... غرفة مخذولة ومقصية، إضاءتها خطرة جداً ومحرجة لأنها تكشف عوالم أخرى وهواجس مختلفة تتطلب جهوداً ذهنية ونفسية خاصة لا تتوافر فينا بسهولة؛ لأننا تربينا على السُّهولة في كل شيء، السهولة في التفكير والقراءة والعلاقات الاجتماعية والكتابة والزواج واختيار المهنة، وحتى في العلاقة مع الله والأصدقاء. دعونا نناقش بند (التحليل) الوارد في مقدمة المنهاج التي تحتوي (هذه المقدمة) على الأهداف العامة للمنهاج. يقول هذا البند: التحليل: «يقوم على أسئلة تثير التفكير وتتناول بناء النص وتوضيح الصورة الفنية فيه».

غياب التحليل في (التحليل)

هيا بنا نرى تطبيق هذا البند على درس (المحبة بين الناس) ص 9. أنظروا أسئلة هذا الدرس المفترض فيها أن تثير التفكير وتبعث على توضيح الصورة وبناء النص.

1- ماذا يقصد الكاتب بالمحبة؟

2- للحب العقلي أنواع، أذكرها.

3- لمن وجبت محبة الله؟

4- هناك أمور إذا فعلها الإنسان كان حرياً بحب جليسه، أذكر أهمها.

5- بين كيف يحافظ الصديق على صديقه؟

أين هي الأسئلة التي تدفع إلى جو ذهني يثير التفكير، هل سؤال من نوع (أُذكر ولمن وبيّن) يثير تفكيري. وحتى لو اعتبرنا أن هذا النوع من الأسئلة يثير التفكير. كيف يمكن أن يثار تفكير شخص ما لا يمتلك مخيلة، وإن امتلكها فهي كسيحة وعاجزة. فكلمة المخيلة أو الخيال لم ترد في مقدمة المنهاج أبداً، هذه الكلمة الضائعة والمغيبة يفترض فيها أن تشكل فضاء العملية التعليمية كلها. (سنتكلم لاحقاً عن مجزرة غياب هذه الكلمة). أُنظروا أسئلة الفهم والاستيعاب في درس (حكاية عبد الله البري مع عبد الله البحري) لتتأكدوا بأنفسكم من عدم وجود فرق بين أسئلة التحليل وأسئلة الفهم والاستيعاب، علماً بأن مقدمة الكتاب تدعي وجود فرق بين نمطي هذه الأمثلة، سأختار ثلاثة أمثلة للتمثيل.

1- كيف كانت معنويات الصياد؟

2- ما موقف الملك من اتهام البري بسرقة مجوهرات الملكة؟

3- ما الأسباب التي جعلت الملك يعين الصياد؟

ما الفرق هنا بين نمط سؤال (بين) وبين (كيف) (وما موقف) وبين (أذكر) وما الأسباب؟

لنذهب إلى قصيدة (فتح طبريا) أُنظروا أسئلة تحليلها:

1- تكلم الشاعر عن القدس وكأنها شخص ماثل أمامه، أي الصور توحي بذلك (دور الطالب هنا هو فقط العثور على الصورة).

2- تتعدد الأفكار في النص لكنها تبقى مترابطة في مضمون واحد، وهذا النص يعبر عن الأفكار التالية:

- الإشادة ببطولة صلاح الدين.
- تمجيد فتح طبريا.
- سرور مدينة القدس (دور الطالب هنا كما ترون تحديد الجملة الصحيحة).

أبين الأبيات التي تعبر عن كل فكرة.

3- كانت مدينة طبريا حصينة لكنها استسلمت. أُوضح الصورة التي تعبر عن هذه الفكرة. «دور الطالب هنا هو التوضيح».

قصيدة «فتح طبريا» ليست غنية جداً بالصور الفنية، لكن حتى مع بساطة صورها وعاديتها لم تستطع أسئلة (التحليل) أن تصل إلى شواطئ هذه الصور. «لماذا لا نطلب منهم أن يقارنوا أو يربطوا أو يتأملوا أو يفككوا أو يعيدوا صياغة؟؟؟؟؟»

أنظروا أسئلة «زائر المساء»، وهي قصة للقاص خليل السواحري، سأمثل على هذه الأسئلة ببضع أسئلة فقط.

1- ما موضوع القصة وما الذي ترمز إليه؟

2- تدور أحداث القصة في مواقع عدة، أبينها وأوضح صلتها بالكفاح الفلسطيني.

3- تكثر في القصة الصور الفنية أشرح، منها ما يأتي:

- مزقت جسد صالح زخة رصاص.
- كأن صاعقة انقضت على ذاكرتي ومسحت منها كل الأسماء.
- موجة من الأرق تغزو مفاصلي وتسبح عبر أَطرافي.

يقرأ طالب الصف الثامن هذه القصة القصيرة وهو لا يعر ف ما هي القصة القصيرة. غاب تعريف وتوضيح جذور وطبيعة هذا الجنس الأدبي. (هذا تفسير التباس التعريف بين القصة والرواية). كثيرون من الكبار لا يعرفون الفرق بين هذين الجنسين، فقد تعرضت أكثر من مرة لسؤال غريب: أما زلت تكتب روايات؟؟؟

قصة «زائر المساء» قصة عادية جداً، مساحة التأويل فيها ضعيفة جداً. هناك قيم وطنية صحيح تعززها أحداث القصة، هناك دلالات إنسانية لطيفة، لكنها لا تغني مخيلة الطالب ولا تثير عنده شهية الاكتشاف والكشف عن المخبوء من الأمور. هذه هي مشكلة صائغي المنهاج: غياب إيمانهم بأهمية تقديم نصوص تتحمل تأويلات متعددة. فالذهن القائم على صياغة هذا المنهاج تربى على البعد الواحد للقصيدة، والرؤية الواحدة للقصة، وهو ينفر من تعدد الدلالات؛ لأنها تربكه وتشتت أفكاره التي اعتادت على الاستقرار والأمان؛ أمان الإجابة الجاهزة المسبقة، أمان الذهن المرتاح.

سأنتقل إلى مناقشة بند آخر من بنود المقدمة.

أنظروا هذا البند: الطالب محور العملية التعليمية؛ فلا بد من مراعاة نموه المعرفي واللغوي والاجتماعي والنفسي.

أنا لا أعرف (وأعود الآن إلى الكلمة المقصية) كيف يمكن أن ينمو الطالب معرفياً ولغوياً ونفسياً واجتماعياً وهو يعاني من مخيلة مشلولة. سأحيلكم الآن على مهارة التعبير في المنهاج. انظروا عدداً من المواضيع التي يقترحها الكتاب – عفواً هو لا يقترحها هو يفرضها – على الطالب.

1- أعبر شفوياً عن فرحتي لتحرير وطني.

2- أكتب فقرة حول بلدتي تكون الجملة المفتاحية فيها واحدة مما يأتي:

- تشتهر بلدتي بكثرة المدارس.
- في بلدتي أماكن أثرية كثيرة.
- يعتمد اقتصاد بلدتي على أشياء عدة.

3- أكتب فقرة تكون الجملة المفتاحية فيها واحدة مما يأتي:

- جاء إعلان قيام دولة فلسطين بعد نضالات عديدة.
- حرية الرأي من الأسس التي تقوم عليها دولة فلسطين.
- تحرص الدولة الفلسطينية على توافر العدالة والمساواة بين أفرادها.

4- أخاطب شفوياً أخي العربي بالأفكار الأساسية الواردة في قصيدة (فلسطين) لعلي محمود طه.

(لماذا لا يخاطب نفسه، يحاورها، يكتشفها؟؟؟؟).

5- أتحدث شفوياً عن المهنة التي أحب أن أمارسها.

6- أكتب فقرة تبدأ بالجملة التالية:

تتسم شخصية روزاليا بالحنان والرحمة

7- ألخص قصة (جزاء الإحسان) بما لا يزيد على عشرين سطراً.

8- أكتب واحدة من الأفكار التالية:

- المعاملة التي أحب أن يعاملني بها أفراد أسرتي.
- المعاملة التي أحب أن يعاملني بها المهتمون بالتربية.
- الحرص على العلاقة مع أبنائي.

(أنا لغتي)

هذه هي مضامين التعبير التي فرضها صائغو ذهن مستقبلنا على أجيالنا البريئة، كيف يمكن أن ينمو الطالب معرفياً ولغوياً واجتماعياً ونفسياً بهذه المضامين الخاوية المملة، وبهذا القدر الفظيع من العداء لاكتشاف المجهول ومغامرة التوغل في مضامين شخصية تعتمد على الحلم والهواجس الفردية واقتحام الأشياء؟ كيف؟

ما هو النمو اللغوي الذي سيحققه الطالب حين يلخص قصة «جزاء الإحسان»، أو حين يتحدث شفوياً عن المهنة التي يحبها؟ فهذه المضامين اليومية السطحية تستدعي لغة سطحية تقريرية وجافة (حتى لو كانت صحيحة المبنى)، هل هذا هو المطلوب: صحة الكلمات والجمل، مبنى وقواعد، وتنقيطاً وخطاً جميلاً وتسلسلاً لأفكار منظمة؟ هل هذا هو المطلوب؟ إذا كان هذا هو المطلوب، فأين النمو اللغوي الذي سيتحقق من هذا المضمون؟؟ ثم ما هو النمو اللغوي؟ هل هو تماسك الفكرة وانتظامها مع سياق الجمل الأخرى، واستخدام كلمات جديدة وتوظيفها في جمل مفيدة؟؟

إذا كان هذا هو النمو اللغوي فهذه مصيبة، هذا تدمير للغة وتخريب للثقة بها أو قتل لها إن وجدت عند الطالب. النمو اللغوي حسب وجهة نظري هو إعادة صياغة اللغة بطريقة تفتح أمامها الطريق لاكتشاف أبعاد أخرى للحياة، هو إعادة توظيف الكلمة في سياقات جديدة، هو تدريب لغتنا ومفرداتنا على المغامرة وخلق كلمات جديدة من كلمات قديمة، إذا كانت الحالة أو الصورة التي أكتب عنها تتطلب ذلك. النمو اللغوي هو الجرأة اللغوية في سبر أعماق الأشياء، وليس الهرب أمام الجديد من الصور والمشاعر والحالات.

النمو اللغوي يعني أن لا أكون عبداً للغة وقوانينها، بل عاشق لها وناقد ومعدل بحب ومودة وانتماء. علينا أن نعوِّد طلابنا على أن يصادقوا اللغة ... يعشقونها، ويكتشفوا معها وبها وفيها الأشياء. طالب الصف الثامن الذي يطلب منه أن يكتب عن (كثرة المدارس في منطقته) لن يجد سوى الكلمات الجاهزة والمستقرة المصفوفة بأدب في قاموس الاستخدام اليومي.

أنعذرهم أم نلومهم؟

مرة أخرى أجد نفسي عاذراً للذهن الذي صاغ المنهاج، فهذا الذهن لا يعرف شيئاً عن المغامرة في اللغة وتدريب اللسان على تذوق الناتئ والمنحني في اللغة. هم تربوا في المدارس (وفي الجامعات حتى) على العوم في سطح اللغة، في الدائرة الآمنة منها، أما الدوائر الخلفية المعتمة فلا أحد يجرؤ على دخولها، فهناك يتم الوقوف وجهاً لوجه أمام الحلم. والحلم خطير جداً فهو لا يعترف بالسائد والمستقر والمتفق عليه. هو خارج عن القانون. (أجمل لص خارج عن القانون).

هل ألومهم أم أعذرهم؟ فبالتأكيد سوف أعذرهم. فهم ضحايا تربية عقيمة وأساليب بالية ورؤى قديمة، ولكن كيف يمكن أن نقنعهم أنهم ضحايا؟

كيف يمكن إنقاذهم من ذهنهم؟ وبالتالي إنقاذ ذهن أولادنا، إنه لأمر فظيع أن يصيغ الضحايا ذهن ضحايا جدد، وهكذا تتوالى المأساة ضحايا يخلقون ضحايا.

قررت أن أبدأ بشن أول المعارك بالتعاون مع جنودي، قررت بالتعاون مع طلابي الذين فهموا انتقاداتي وملاحظاتي أن نشعل شموع الغرفة المعتمة داخلنا. قلت لهم: لن نكتب عن كثرة المدارس في منطقتنا، ولن نوجه رسالة إلى الشعوب العربية؟ ولن نلخص قصة «جزاء الإحسان» ولن نكتب عن المهنة التي نحبها.

سنكتب عن حلم حلمناه ليلة أمس. عن الجبل المجاور وهو ينحني على مدرستنا وكأنه يعانقنا أو يخنقنا، سنكتب عن النهر الغادر والصديق الجبان والشجاع. سنكتب عن العلاقة الغامضة بين الرياح والمطر، سنكتشف اللغة السرية للغيوم. سنحاول محاورة غابة بعيدة، سنطير إلى القمر ونجري معه حواراً صحافياً، سنحاول أن نعرف لماذا اختفى سكان قرية ما فجأة، وسنقرأ يوميات بنت صغيرة اختفت دون سبب، سنكتشف سر الصداقة الغريبة بين المطر والشجر، وسر الحرب الهائلة بين النار والماء.

سنرسم رائحة زهرة، ونفتح نافذة فكرة، سنعرف لماذا سجن القمر الشمس، وسنقوم بتجربة تزويد النار بدفء. سنبتعد عن المدرسة وساحتها ومقاعدها وعن بيوتنا وأهلنا ومدينتنا ووطننا، سنذهب إلى أماكن بعيدة. لا تقلقوا يا أهلنا ويا مدرسينا ويا شرطة مدينتنا، نحن لسنا تائهين، نحن نخلع فقط ذاكرتنا لمدة مؤقتة، ونطير مع الريح لنعرف أكثر عن وجوه أخرى للحياة. حالات وأحاسيس وصور ومناطق غير مأهولة في أعماقنا. سنعود لا تقلقوا .. سنعود .. سنعود.

في أعماق الغرفة السحرية

نحن داخل الغرفة، الآن أغلقنا باب الصف بالمفتاح، أشعلنا شمعة، أسدلنا ستائر النوافذ، استرخى جنودي في مقاعدهم، فككوا الزرين الأولين في قمصانهم، وراحوا يحدقون في الشمعة، غابوا عن الوجود، وغبت أنا معهم. كنت قد قلت لهم، الشمعة نص، لنحاول أن نقرأه.

نصف نائم أجاب بشار: الشمعة حزن.

إبراهيم:	الشمعة انهيار:	تنهار الشمعة أمام المطر
فراس:	الشمعة خوف:	تخاف الشمعة من الريح
عمر:	الشمعة تضحية:	تضحي بجسمها
أحمد:	الشمعة موت:	تموت بهدوء دون مقاومة
عمرو:	الشمعة خلاص:	خلاصها في موتها
براء:	الشمعة حرية:	حريتها في موتها
محمد:	الشمعة صمت:	صمتها في انطفائها
رام:	الشمعة متاهة:	متاهتها في لهبها
عبد الله:	الشمعة قوة:	قوتها في موتها
خالد:	الشمعة ابتسام:	ابتسامتها في ضوئها

تعالوا نكتب مشهداً صغيراً نصف فيه حالة من حالات الشمعة أو دلالة من دلالتها.

اكتب أنا: امتطي لهب الشمعة وأسافر إلى الثلج.

يكتب رام: ارسم معاناتها في لوحة صغيرة فيحترق الإطار.

يكتب محمد: الشمعة تنزف جمالاً حزيناً.

يكتب وسام: الشمعة تخون لهبها وتنطفئ قبل أوانها.

يكتب فراس: تبتسم وتموت وتترك وراءها جسماً غريباً غير مرتب.

يطرق أحدهم الباب – يا إلهي! نهبط على الأرض، نصحو من حلمنا، نتأفف معاً، أفتح الباب يا للمهزلة: معلم يرسل طالباً إلى الصفوف بحثاً عن (عصا) يضحك الطلاب.

يقترح عمر: لا تفتح الباب لأي سبب حتى لو كان المدير. أوافقه وأقرر عدم فتح الباب أبداً.

ولكن مجرد الطرق على الباب سيوقظنا يا أستاذ وقد يطفئ الشمعة يقول أحمد.

تبدو الحيرة على وجهي، أتوتر وأصيح: أين نذهب؟ أليس هناك مكان آخر للحلم، للهدوء، مكان لا يزعجنا فيه أحد، لا يخدش طيراننا طرقات باب أو صوت جرّافة. أتدرون أحس أحياناً أن هناك مؤامرة ضد الحلم، ضد الخيال، يبتسم الطلاب. نعاود الحلم. نصف إغماضة وتشتعل الشمعة، عتمة خفيفة في الصف. نكتب أحلامنا وهواجسنا على السبورة.

يكتب جنودي نصوصهم على الدفاتر. أكتب أنا معهم نصي. نقرأ نصوصنا على بعضنا البعض.

أطلب من طلابي أن يبدوا ملاحظاتهم، أقول لهم: لقد ودعنا صيغ السؤال التقليدية: (لماذا وبين واذكر وعدد واشرح وعلل).

دعونا نستخدم الآن صيغاً جديدة: قارن، اربط، حلل، صغ، فكك، ركب، تأمل، من هذه الصيغ نستطيع أن نصنع حلماً، حلماً قادراً على إمتاعنا ذهنياً ومعرفياً.

رام – يبدي ملاحظاته على نص إبراهيم.

إبراهيم – أنت تكرر كلمات كثيرة في نصوصك.

إبراهيم يبدي ملاحظاته على نص رام:

رام أنت متفائل جداً في نصوصك.

أنا أبدي ملاحظاتي على نص عمر.

عمر، يا صديقي أنت تكثر من الأسئلة في نصك.

أندهش لنصوص طلابي. أرافقهم إلى المدير. يقرأون نصوصهم أمامه، المدير يندهش والمعلمون مستغربون من اندهاشنا. ولا يعرفون ما الذي يدهشنا، ما الذي يستأهل هذه الدهشة السعيدة. أنهم يرثون لنا اهتمامنا وتوترنا. آخذ تلفون المدرسة اللاسلكي إلى غرفة صف فارغ في الاستراحة. أهاتف وسيم الكردي الشاعر

والتربوي، يقرأ طلابي نصوصهم لوسيم. طلابي فرحون ومتوترون ورائعون. وسيم يقول لي لاحقاً: هل تعرف أثر هذه الاتصالات على الطلاب؟ أجيبه: نعم أعرف. الطالب يقرأ ما يكتبه، لشخص خارج نطاق الصف، يتواصل معه لغوياً دون أن يراه، يسمع آثار تفاعلاته، يتخيل متلقياً مجهولاً بالنسبة إليه....

وأعرف أيضاً أن لمركز القطان للبحث والتطوير التربوي دوراً كبيراً في إيقاظ المعلم الجميل الذي كان غافياً داخلي.

في الاستراحة: أغادر الطلاب والضجيج والمعلمين وأدخل قاعة المكتبة الملاصقة للجبل الذي ينحني على المدرسة كأنه يعانقها أو يخنقها. أتنفس بعمق.

أضع (سي دي) موسيقى الهنود الحمر في بيته في جهاز الحاسوب.

تشتعل القاعة أصواتاً. رجال في غابة يصلون أو يبكون أو ينادون أو يضحكون أو يحتضرون أو يغضبون. صوت جماعي. لا أفهم من كلامه شيئاً لكني أفهم كل شيء. كأنهم يغنون لمطر سوف يطرد غبار الطريق، أو كأنهم يقولون كونوا غابة لا شجرة. لا أدري إن كان أحدهم يطرق الباب أم لا. لم انتبه، لا أريد أن أصغي إلا إلى الموسيقى الغريبة التي يعزفها هذا الجبل الضخم. بجانبي اختلطت عليَّ الأصوات – طرقات باب القاعة، مع ضجيج الجرَّافة في المكان، مع صوت هنود الحمر، مع صوت الغرفة المفتوحة داخلي، مع صوت الرصاص في المدينة.

إنها الحياة. أصوات، أصوات، أصوات. بعضها يزعج وبعضها يريح. بعضها معك وبعضها ضدك. إنها الحياة. أرى نفسي أسيرُ على جبل يقود إلى غابة، تحتي أصوات غاضبة، وفوقي مطر غزير، وحولي رياح هوجاء تدفعني نحو الهاوية، وبعيداً بعيداً أسمع صوت طلابي يضحكون ويغنون: كن غابة لا شجرة. كن حديقة لا زهرة. كن مدى لا جداراً. كن أفقاً لا سياجاً. ما زلت على الجبل أسير، متوتراً وآيلاً للسقوط فوق الأصوات الخشنة والغاضبة. أكاد أهوي، آه إني أهوي، آه آه فجأة يرسم طلابي شمعة ضخمة بلهب واسع وهادئ، يحملني اللهب كصهوة حصان باتجاه الغابة باتجاه طلابي. هناك أراهم يتوغلون في أعماق المجهول – عنوان الرحلة يا أستاذ هو (المواجهة مع المجهول – وداعاً للمعلوم) أسير معهم. لا نعرف ما الذي ينتظرنا.

أليس هذا هو هدف الحياة: أن نكتشف ونغامر ونقتحم ونخرق الوصايا ونحرق الطرق القديمة التي لا تؤدي إلا إلى العبودية والخوف، أن نعرف أكثر، أن نبحث عن آفاق جديدة للعيش؟؟

ليس للغابة نهاية، ما زلنا نشق طريقنا غير المعروف طريق بكر، نمشي عليه كأننا نعزفه أو نرقصه. إلى أين نذهب؟ يا له من سؤال رائع.

والجواب الأروع: هو إلى حيث لا ندري، إلى حيث لا نعرف، إلى المجهول، آه المجهول ... المجهول.

زياد خدَّاش – كاتب ومدرس في مدرسة أمين الحسيني – البيرة

نماذج من كتابات الطلاب

وضمن الرؤية التي وصفها المعلم زياد خدَّاش، وخلال مشروعه المختلف في تعليم الكتابة والكتابة الإبداعية، اختارت «رؤى تربوية» أن تنشر نماذج مما أنتجه الطلاب خلال ذلك المشروع لاستكمال الحالة عبر نشر عملية الكتابة وآلياتها، كما وصفها المعلم، وعبر نشر نماذج مما أنتجه الطلاب، لما لذلك من أهمية وفائدة للمعلمين، للإطلاع على تجارب وخبرات بعضهم البعض، لإثارة حوار تبادلي يمس جوهر عملهم، بشكل حر وفاعل.

النافذة الغريبة

أسير تحت نافذة مضاءة، في شارع صامت وفارغ من المارة، يجتاحني شعور غريب بالقلق، فاقتربت من النافذة، نظرت فيها. يا إلهي! ما هذا؟ إن الحرية في الداخل تنادي وتقول أنقذوني من الظلام أنه يجتاح قلبي، فهجمت على الظلام وضربته بنوري فقتلته، ونزل منه دم شفاف، سقطت عليَّ نقطة ومسحتها بالحرية. فقالت لي الحرية: شكراً لمساعدتك. قلت لها: لا شكر على واجب. وذهبت مع أبيها وأمها وكان أبوها من ثلج وأمها من نور.

أحمد عمر

أين ذهب

جالساً على الرف ينتظر أحداً ليأخذه، لكن لم يأتِ أحد، فقفز عن الرف وذهب إلى الطاولة، فلم يأتِ الناس، فهرب من المكتبة إلى شوارع المدينة يصرخ ويقول: هيا خذوني ألا تحبّون القراءة؟! فنظر الناس إلى السماء وقالوا: من الذي يتكلم؟!

فحزن الكتاب، وذهب إلى الخباز وقفز في النار ومات.

محمود محمد الخاروف

الغابة الغريبة

عصافير وجداول الماء العذب تدفعني للتعمق في هذه الغابة، وجدت مكاناً غريباً شاهدت أناساً غريبي الأطوار، كانوا يهللون ويرقصون، لا أدري ما هي هذه التهاليل، أهي أغانٍ أم بكاء؟ بقيت أفكر في نفسي، وجدتهم يدورون حول نار راقصة. يا لهذه الرقصات الغريبة. ابتعدت عنهم برهة، حل الظلام، داهمني الشعور بالخوف، جلست تحت شجرة كبيرة في أعماق الغابة، فكرت قليلاً، وقلت في نفسي: ما هي هذه الأصوات؟

حجازي فؤاد

الرؤية المجنونة

رجل يشعل ناراً ليدفئ بها جسمه، فيرى النار باردةً فيدفئها بجسمه، ويأكل أمامها فيرى النار جائعةً فيغمس يده فيها ليطعمها .

الرسم المجنون

ولد يهوى الرسم، يفتح نوافذ الحديقة فيرى الورود تبتسم له فيرسم رائحتها .

ويرى الشمس تضحك له فيرسم برودة الشمس.

ويرى الظلام يأكل الحديقة فيرسم غيمة تمطر نوراً من الأمل يحطم الظلام.

الأعمال المجنونة

أرى كلمات مسجونة لا تستطيع التنفس تريد الخروج من لوحة مجنونة.

شمس مسجونة بتهمة اغتيال طفل والسجَّان قمر.

مياه تجري من دون أن تتعب تطعم شجرة وتسقي وردة.

أسبح في شمس باردة، فإذا بالشمس عطِشة فسقيتها عطراً من الورد.

رام زاهر إبراهيم مرعي

النهر

هل هو في داخلي أم أنا في داخله؟؟

أنا النهر، لوني أزرق، أسبح، أرى قمراً مجنوناً وشمعة مخدوعة وروحاً مقتولة، أريد أن أسبح في الفضاء، ما هذا؟ أنا في الفضاء أسبح به كفهدٍ جبارٍ غدارٍ، كروحٍ مجنونة، ونور شفق يبكي دموع خيبة أمل ونفسه مكسورة.....؟؟

المطر

1- شمس تمطر غضباً ويخرج منه رائحة زكية.

2- نزل بقوة ضرب منزلي حرق نفسي.

3- غيمة تضرب الشمس حتى تدفأ.

4- مطر يهرب من طفل دافئ.

عمر نجاتي

النافذة المضيئة

أسير تحت نافذة تشع منها إشعاعات مضيئة، كسرت حواجز الزجاج لتنير لي في وسط الظلام الدامس وهجاً، في زقاق صامت وخالٍ من المارة، اجتاحني شعور غريب بالقلق وتملكني الخوف، إطلالة على الكون لا أدري أين أسير، كل النوافذ معتمة، لا أدري إذا كانت هناك نوافذ مضيئة، ولكني مررت أثناء سيري بنافذة يشع منها الوهج المضيء.

تفاجأت، وقلت: يا إلهي! إني أرى وهجاً شعاعاً، ركضت نحو النافذة، فجأة وقفت، أحسست بشيء غريب بداخلي.

يقول: لا تقترب!!

قلت: لماذا؟

قلت: لا لم يكن فخاً.

قال: أنا نوهت لك بعدم الاقتراب.

ولكني أمام إصراري وإلحاحي ذهبت إلى النافذة، كانت إطلالة جميلة تسر الناظرين، لكني لم أدرِ ماذا يوجد فيها؟ ثم دخلتها، كانت الشمس تشع بخيوطها النرجسية والوردية في هذا الصباح الجميل.

وسام السلامين